الباب السادس

تحديات

obeikandl.com

obeikandl.com

تحديات الوجود

استحوذت تيارات التغريب على وسائل الإعلام ذات الصلة المباشرة بالتغيير والتوجيه وصناعة الرأي العام لسنوات طويلة، وتمكنت من خلالها من بثِّ أفكارها وتصوراتها، وتشويه الآخر الإسلامي في غياب شبه تام للإسلاميين عن هذه الساحة، بسبب الإقصاء المتعمَّد تارة، أو قلة وعي الحركات الإسلامية بخطورة هذه الآلة تارة أخرى.

وقُبَيل اندلاع ثورات الربيع العربي وجد بعض الإسلاميين متنفساً إعلامياً من خلال قنوات فضائية محددة، استُغلَّت منابرَ إعلاميةً تركزت مهمتها في الوعظ والإرشاد الديني بصورة كليَّة، بينما استغلت تيارات أخرى لم تجد لها موطئ قدم في ساحة الفضائيات الشبكة العنكبوتية لكسر الطوق الذي فُرض عليها.

ومع نجاح ثورات الربيع العربي في إزاحة بعض الأنظمة التي وقفت حجر عثرة أمام الوجود الإسلامي في الإعلام بصورة مؤثرة، تحتَّمَ على الإسلاميين أن يفقهوا استخدام هذه الآلة، وأن يحضروا بشكل صحيح على الخريطة الإعلامية.

وهذا الوجود الإسلامي الفاعل على الخريطة الإعلامية تواجهه في البداية عدة تحديات، منها:

الالتزام بالتصوُّر الإسلامي:

فالإعلام خاصة المرئي ارتبط في كثير من الأذهان بالإباحية لإرضاء النزوات والشهوات، أو العزف على وتر السلطة لإشباع حاجة الحكام والرؤساء، بَيْد أن إعلام الإسلاميين لا بد أن يلتزم في مضمونه ووسائله بالتصوُّر الإسلامي للإنسان والكون والحياة المستمد أساساً من القرآن الكريم وصحيح السُّنَّة.

تبنِّي معايير الاحتراف:

ونقصد بها التعامل مع مفردات الإعلام بشكل احترافي ورصين؛ فلا يكفي في الرسالة الإعلامية المؤثرة حشو الساعات الطوال للفضائية أو للوسيلة الإعلامية وبالمواد الإعلامية فقط؛ بل لا بد من خطة إعلامية واعية مبنية على أسس علمية، تعي من تخاطب، وبم تخاطب، ولماذا تخاطب؟

صحيح أن الأنظمة فرضت حظراً على الوجود الإسلامي في الإعلام، وهو ما أفقد كثيراً من الإسلاميين الحسَّ المهني، لكن لن تَعدِم الحركات الإسلامية وسيلة للتغلب على هذه العقبة وتجاوزها.

تحديد الأهداف المحورية:

الإنسان هو الهدف والغاية، وأي استثمار يُغفِل الإنسان ويتجاهل عقله، استثمار لا قيمة له ولا جدوى من ورائه؛ لأن هؤلاء البشر هم المكوِّن الأساسيُّ في بناء الأمم، ومن ثمَّ فإن هدف المؤسسة الإعلامية الإسلامية بناء إنسان النهضة، وأي هدف آخر يأتي تابعاً، وبما لا يتعارض مع هذا الهدف الأسمى.

وهذا يستلزم من القائمين على الإعلام الإسلامي، تزويد الجماهير المسلمة وغيرها بحقائق الإسلام، والقضاء على المعتقدات الخاطئة والمفاهيـم المغلوطة عن الإسلام والمسلمين، واتخاذ كافة الوسائل التي تنمي مَلَكَة التفكير المبدع لدى الإنسان.

خطاب الناس كافة:

لا بد أن يستقر في وعي المسلمين أن رسالتهم موجَّهة إلى كل الناس، وهذا ما يفرض على الإعلاميين المسلمين تنويع لغة الخطاب بما يناسب الداخل العربي المسلم، والخارج الغربي وغيره، وكذا تنويع الاهتمامات؛ بحيث تجذب لها شرائح متنوعة ومتعددة، كلٌّ يجد بغيته في الإعلام المسلم الرشيد.

مراعاة الأولويات:

فقه الأولويات لا بد أن يكون عنصراً رئيسياً في التوجُّهات والقرارات واختيار البدائل؛ فلا يتم الاشتغال إعلامياً بالفروع عن الأصول، ولا يتم الإصرار على أمرٍ تغلُب مضارُّه على فوائده، حتى لو كان في أصله صحيحاً.

الإعلام الإسلامي والمرحلة الراهنة

إن إعلام الأنا في ظل التحديات المعاصرة ومعطيات الواقع يُعاني ضعفين، فأمَّا الأول فيتمثل في ضعف العرض؛ نتيجة انعدام القُدرة على تصنيع الأدوات التقنية، فضلاً عن المعرفة بثقافة صناعة التأثير والتوجيه من خلال وسائل الإعلام، هذا فضلاً عن التمكُّن في عرض الحقيقة والمضمون.

أمَّا الضَّعف الثاني، فيتمثل في ضعف في الرد، فضلاً عن المواجهة والمقاومة لحملات التشويه لفكر وثقافة الأنا، وذواتها وكياناتها التي تجري في منابر الإعلام الغربي؛ لتظل الأنا في ظل هذين الضعفين عاجزة عن العرض والرد في عصر السَّمَوات المفتوحة والحرب الثقافية الشَّرسة، التي تفوق في أبعاد تأثيرها حرب الترسانة العَسكريَّة؛ لأن الأولى تقضي على العقول والثقافات، والثانية تقضي على الأجساد والأرواح.

أولاً: ضعف في عرض الصورة فضلاً عن الحقيقة والمضمون:

لا شكَّ أن الإعلام المسلم أصبح يعاني عدمَ القُدرة على القيام بما يخدم القضايا الحساسة للأمة الإسلامية؛ لأنه يشكو من مرضٍ عضال استشرى فيه، وهو مرض التفاهة الإعلاميَّة، فلا تكادُ تَجد أي فضائية عربية أو إسلامية تسخِّر إمكانيَّاتِها لخدمة الفكر الإسلامي، بل تجد ما يطرح في غالب الأحيان قضايا لا تَمس تطوير الكيان، والعمل على نقل مبادئه عبر الوسائل المعلومات المختلفة، ولا شك أن هذا المرض العضال سيستشري إذا لم يتم احتواؤُه، والعمل على القيام بما يصلح من شأن الإعلام الإسلامي في تناوله لقضايا الفكر الإسلامي.

إنَّ وحدة الفكر، والعقيدة المشتركة، والسياسة التربوية الموحَّدة، واستمرار التراث، والحفاظ على إرث التاريخ، كلها تتوسَّل الفن الإعلامي،وكلُّها ضرورات أساسية للحفاظ على شخصية المجتمع واستمراره.

لقد أصبح الناس اليوم يشعرون شعورًا متزايدًا بأهمية التواصُل الإعلامي؛من أجل الحفاظ على وَحْدَتِهم الاجتماعية، ومن أجل توسيع هذه الوحدة والاطمئنان على سلامتها، ثم إنَّ الإعلام ما هو إلا وسيلة للتوجيه والإرشاد بقصد تثبيت الشخصية المتكاملة .

يؤكِّد عمر عبيد حسنة في كتابه مراجعات في الفكر والدعوة والحركة: أنَّ التوجيه والتطوير في الإعلام له دَوْر كبير في تكوين الثقافات المختلفة، وإيصال المفاهيم عبر وسائل الإعلام المختلفة، وذلك لا يتم في ظل غياب تطوُّر الإعلام المسلم، مع أن قضية الإعلام اليوم، والمدى الذي وصل إليه من التحكُّم والاختراق، والاحتواء باتت من أخطر قضايا الثقافة وأبعدها تأثيرًا في تشكيل الفكر على مستوى الأفراد والجماعات، فقد أصبح الإعلام هو الذي يحضِّر الأمم، وهو الذي ينشئ عندها فُقدان الذات دون أن تدري أنها لا تملك أمرها.

ليس من المغالاة،ان نقرر أنَّنَا نعيشُ اليومَ مرحلة الدولة الإعلاميَّة الواحدة التي ألغت الحدود، وأزالت السُّدود، واختزلت المسافات والأزمان، واخترقت التاريخ، وتكاد تلغي الجغرافيا، حتى بات الإنسانُ يرى العالم، ويسمعه من مقعده، ولم يقتصر ذلك على إلغاء الحدود السياسية، والسدود الأمنية، إنَّما بدأ يتجاوز الحدود الثقافية، ويتدخَّل في الخصائص النفسية، وتشكيل القناعات العقدية، فيعيد بناءها وفق الخطط المرسومة لصاحب الخطاب الأكثر تأثيرًا، والبيان الأكثر سحرًا، والتحكُّم الأكثر تقنية، وبالإمكان القول: إنَّ المعركة الحقيقية والفاصلة اليوم هي معركة الإعلام، بعد أن سكتت أصوات المدافع، وتوارى أصحابها، وبَقِيَ الإعلام هو أخطر الأسلحة ذات الدمار الشامل، بعد أن أصبحَ ثمَرة تشارك في إنضاجها كل المعارف والعلوم، وتوظّف لها أرقى الخبرات،وأصبحتْ

في كثير من الدول تدعم بميزانية تفوق الميزانية المخصَّصة للدعم الغذائي الذي به قوام الحياة، ولئن كان الإعلام في الماضي يوظَّف للترفيه والتسلية، ويعيش على هوامش المجتمع، فهو اليوم من صميم المجتمع، وأصبح يوظَّف لأداء رسالة، وإيصال فكرة، وتشكيل عقل، وصناعة ذوق عام.

ثم أنَّ مشكلة التخلف الإعلامي، التي تعانيها الأمة المسلمة هي مظهر للمشكلة الأساسية التي تعانيها فى كل النواحى، بل لعل الإعلام هو أحد إفرازاتها، وتبقى المشكلة الأساسية هي مشكلة التخلُّف؛ حيث لا يتصوَّر نمو في جانب، وتخلُّف في الجوانب الأخرى.

ومن هنا كان لا بُدَّ من إدراك الأبعاد المتعدِّدة والخطيرة للعملية الإعلاميَّة، التي تبدأ بالتسلل إلى داخل الأُمَّة فتخترقها، ثم تعمل على التحكُّم فيها واحتوائها، وبذلك تلقي القبض على عقلها وعواطفها واهتماماتها، فتعيد تشكيلها وَفْقًا للخطط المرسومة، وأخطر ما في هذا الاختراق والتحكُّم الإعلامي توهُّم الأمم المخترَقة أنَّها تمتلك إرادتها، وتصنع رأيها، وتتَّخذ قرارها بنفسها،دون أن تشعر أنها تدور في فلك نفسها، وتحرَّك بالريموت عن بُعد.

وقد أكد حسنة أن الحصار الإعلامي اليوم قبل مرحلة أقمار البث المباشر، التي تنوي الدول القوية زراعتها فوق رُؤوسنا، وتسليطها على

حواسِّنا حيثما كنَّا يطبق علينا من كل جانب، وأن الاستهلاك الإعلامي في العالم الإسلامي للمواد المصنَّعة في الخارج يزيد عن ٨٠ % من المطروح يوميًّا، ويأتي في معظمه محاكاة لأفكار وإنتاج وإخراج الدول المتحكِّمة إعلاميًّا، وشأننا في ذلك شأن الإنسان الاستهلاكي لأشياء الحضارة، العاجز عن إنتاجها الذي سوف ينتهي شاء أم أبى به إلى لون من الارتهان الإعلامي والثقافي والحضاري؛ لأن الإعلام لم يعد يقتصر على إيصال المعلومة، إنَّما يُسهم في تشكيل الإنسان، وإعداده لقبول المعلومة التي يريد دون أن يدعَ له الفرصة لفحصها واختبارها لقبولها أو ردِّها.

ومن جانب آخر، لا تخرج العمليَّة الإعلاميَّة في عمومها عن غيرها من عمليات التحكُّم المتعدِّدة، التي تُمَارس من عالم الأقوياء على عالم الضُّعفاء؛للحيلولة دون ردم فجوة التخلُّف، وإلغاء التبعية الفكرية والإعلامية والثقافية والسياسية والاقتصادية، فالقدرات والقابليات الإعلامية المبدعة، التي قد تشكِّل الأمل للخروج من دائرة التحكُّم لا تجد لها مكانًا ولا مناخًا في العالم الإسلامي؛ لذلك ترى استمرار استنزاف الطاقات وامتصاص القدرات المبدعة، الأمر الذي يجعل العالم الإسلامي على وجه الخصوص، والعالم الثالث بشكل عام صدًى لأفكار الغرب ومنتجاته الإعلاميَّة، التي تمهِّد لتسويق أفكاره ليستمر الفقر الإعلامي والفقر الفكري، إلى جانب مظاهر الفقر الأخرى، نتيجة لضعف العملية

الإعلاميَّة لدى المسلمين، فقد نتج ضعف في الخطاب والحوار الإسلامي؛ وذلك لعدم وجود انطلاقة لدى المسلمين ينطلقون منها لبَثِّ روح التجديد والتطوير في كل مجالات الحياة .

ويحذر محمود حمدي زقزوق وزير الأوقاف المصري من التحدِّيات الكبيرة التي تواجه الإسلام والمسلمين في الوقت الحاضر، مشيرًا إلى أنَّه تم تجنيد ترسانة الإعلام الغربي لتشويه صورة الإسلام والمسلمين في مُختلف أنحاء العالم، وأن الإعلام الإسلامي يتحمَّل مسؤولية ضخمة في هذا المجال؛ حيث عليه أن يوقظ الهمم، ويسد الفراغ، ولا يكتفي بالضرب على أوتار القلوب وإلهاب المشاعر؛ بل ينبغي أن يُخاطب العقول، وأن يسهم بفاعلية في مكافحة السلبيات، والتركيز على الأولويَّات، والارتفاع بوعي شباب الأمة، وعدم الدخول في جدل عقيم حول الهامشيات.

ويتوقَّف زقزوق لبيان واجبات الإعلام الإسلامي لمواجهة المشكلات والتحديات التي تواجهه؛ حيث يقرر أنَّ من أهمها ضرورة مواجهة الفراغ الفكري لدى شباب الأمة بالأفكار الإيجابية الإسلامية، وإلا سيصبح الشباب عرضة لتقبُّل ما يرد إليه من أفكار مُختلفة يروِّجها الآخرون، كما لا بد من وضع خطَّة مزدوجة للمواجهة الفكرية تسير في اتِّجاهين متوازيين، أحدهما: توضيح المفاهيم الإسلامية، والكشف عن

الأخطاء الشائعة، وثانيها: مناقشة الأفكار الهدَّامة، وإبراز الرد العلمي عليها ويؤكِّد زقزوق على ضرورة ألاَّ يغفل الإعلام الإسلامي مواجهة التأثير العميق للإعلام الغربي في عقل أبناء الأقليات المسلمة، وأنَّ هذه الأجيال من أبناء المسلمين في الغرب تكاد تفقد صلتها بثقافتها الإسلاميَّة أما أحمد عمر هاشم رئيس جامعة الأزهر سابقًا، فيؤكِّد أنَّ عصرنا هذا هو عصر السَّموات المفتوحة والتحدِّي الحضاري؛ مما ينبغي معه وجود ميثاق شرف بين وسائل الإعلام والدول، وأن تكون هناك مواجهة حقيقية لهذا البثِّ الذي يحمل المخاطر من كل جانب، وأنه لا يُمكن الإيفاء بهذا الواجب العظيم إلاَّ بإعلام إسلامي غيور مُخلص يجعل كل جهوده لنشر الإسلام وتوحيد الأمة.

ويؤكِّد علي عجوة عميد كلية الإعلام بجامعة القاهرة على ضرورة بناء إستراتيجية مستقبلية للإعلام الإسلامي،في ضوء التيارات المتلاحقة، التي تفرض على المخططين والمنفِّذين الموائمة المستمرة بين الخطط التفصيلية والتطورات الإعلامية السريعة في عالم الغد، خاصَّة مع التفوُّق الكبير لوكالات الأنباء العالمية على وكالات الأنباء المحلية في جمع ونشر الأخبار والأفكار والمعلومات.

والتحدِّيات التي تواجه الإعلام الإسلامي يمكن حصرها في أربعة أمور كُبرى، تحتاج إلى جهود كبيرة لمواجهتها، وإضعاف أثارها محليًّا؛ تمهيدًا للتغلب عليها، وتحقيق التفوُّق في المستقبل القريب تتمثَّل في:

- قوة الاتصال الغربي، والسيطرة التي يتفوَّق من خلالها على العالم كله.

- الدعاية الصهيونية التي تستفيد من دعاية الإعلام الغربي، وتتحكَّم فيه؛ لتحقيق أهدافها الخاصَّة.

- ما تُسهم به أوضاعنا في إضعاف الإعلام وإتاحة فرص التفوُّق للدعاية المضادَّة.

- الإرساليات التنصيريَّة وما يدعمها من قوى سياسية واقتصادية.

ويرى عجوة أنَّ مواجهة تلك التحدِّيات تستلزم قيام الإعلام الإسلامي على دعائم مهمَّة، كالصدق، والواقعية، والتركيز على الأحداث الحقيقية ذات الأهمية بالنسبة للمجتمع المسلم.

ويرى فاروق أبو زيد عميد كلية الإعلام الأسبق بجامعة القاهرة حتمية وجود جهاز إعلامي إسلامي، يهدف إلى وضع أسس إصلاح المجتمعات الإسلامية، طبقًا لتعاليم الدين الإسلامي، كما أكد أنَّ الإعلام الإسلامي اليومَ بمختلف قنواته التي تمثله قد أهمل الدعوة والتعريف

بالإسلام حتَّى بين المسلمين، ولا بد أن يفهم العاملون بجهاز الإعلام الإسلامي أنَّ المسؤوليَّة هنا مسؤولية شرعية، وليست عملاً هامشيًّا؛ بل هو من صميم الدعوة وركيزة أساسية لمن يركِّز، أو يعارض مبادئ الدين، فالمسؤولية خطيرة؛ لأنها دعوة لأمة مثالية تُضاهي الدول الكُبرى في ظل تطوُّرات العصر، فلا بد من مترجم يعرِّف حقائق الإسلام للغير. كما أكَّد على ضرورة التخطيط الجيِّد للإعلام الإسلامي، مع ضرورة وجود ديوان الترجمة الإسلامي، والذي يكون به قسم خاص بالموسوعات لفقه الإسلام وترجمة المصطلحات الدينية بكل اللغات الأجنبية، إضافة إلى ترجمة كل ما يكتب في بلاد العالم عن الإسلام وشعوبه، وتوزيع هذه الكتب المترجمة على المسؤولين وأجهزة الإعلام، وكذلك العمل على إصدار نشرات باللغات الأجنبية يكتبها العلماء المتخصِّصون من المسلمين في الموضوعات التي تهم المجتمعات الحديثة، وترد على ما يشيعه أعداء الإسلام، هذا إضافة إلى القيام بالدراسات المقارنة بين ما جاء به الإسلام، وما جاءت به الفلسفات والنظريات، وكذلك ضرورة جمع وتصنيف وتحقيق التراث الإسلامي، وعرضه بطريقة مبسَّطة للتعريف بمبادئ الدين، مع ضرورة أن يشرف على ذلك علماء الدين، والسياسة والاقتصاد والإعلام؛ للاستفادة من علمهم وخبرتهم.

ويشير محمَّد عمارة إلى أن محطَّات الإذاعة في دول الشرق الأقصى عليها طلب مكثَّف من أصحاب الاتجاهات المختلفة في العالم؛ لاستئجار وقت فيها لبث برامجها، وعلى رأس المستأجرين دعاة التنصير في العالم، وأشار إلى أنه من خلال رصده لظاهرة استقبال البرامج في البلاد الغربية تبيَّن أنَّ الكثيرين يشاهدون البرنامج المسيحي، كما يَحرصون على مشاهدة البرنامج اليهودي، وأن البرنامج الإسلامي لا يعرف به أحدٌ؛ لعدم الاعتناء بحسن عرضه كالبرنامج المسيحي واليهودي، حتى غدا غير معروف لدى المستمع.

كما أكَّد عمارة على أهمية دور الجمعيات والهيئات الخيرية الإسلامية للقيام بدور فعَّال، في التعريف بوجود إذاعات تبث برامج إسلامية هادفة، إضافة إلى ضرورة استقبال العاملين في مجال السينما والتلفاز، وحثِّهم على إنتاج برامج إسلامية تعيد تثقيف تلك الشعوب.

أما أحمد كمال أبو المجد وزير الإعلام السابق، فيرى أنَّ الإعلام الإسلامي هو السبيل إلى مجتمع القوَّة، باستجلاء معاني الإسلام التي ما زالت خافية، ومن الضرورى وجود تصوُّر سابق لما يَجب أن تكون عليه الأوضاع مستقبلاً، وهذا يعني تحديد الفارق بين التخطيط، وبين استشراف آفاق المستقبل، بقصد التهيؤ لاستقبال الغد والتعامل معه، فلا سبيل لتحقيق هذا الدور إلاَّ إذا خرجنا من الذات الإقليمية للتواصل مع

الآخرين، مع الحفاظ على الهوية الإسلامية، وقبل ذلك لا بد أن يستقر في وعي المسلمين أنَّ رسالتهم موجَّهة إلى كل الناس، وأنه من الضَّروري المشاركة بحضارتنا العربية والإسلامية من جديد في صنع التاريخ وترشيد سيرته .

ثانيًا: ضعف الرد على حملات التشويه، فضلاً عن مواجهتها ومقاومتها:

كما يُعاني الإعلام الإسلامي من ضعف في عرض الصورة، فضلاً عن عرض الحقيقة والمضمون والفلسفة للخصوصيَّة الثقافيَّة، وللرسالة الربانية التي خَصَّه بها المولى عز وجل فإنه يظل عاجزًا بناء على ضعفه الأول بضعفٍ يترجمه في القُدرة في الرد على حملات التشويه لصورة الدين وحقائقه وللمسلمين، فضلاً عن مواجهتها ومقاومتها؛ ذلك أن من عجز عن الرد لا يُمكنه المواجهة والمقاومة، ولا شك أن هذا الضعف انعكست آثاره على الأقليات المسلمة والعربية، التي تصل اليوم إلى عشرات الملايين.

إنَّ الإعلام الغربي اليومَ يقوم في تكوينه للتوجه عند الإنسان الغربي بدَوْرٍ كبيرٍ في تشكيل عقله، وقد رصد محمد بشاري صورة الإسلام في الإعلام الغربي، وخرج من خلال قراءته بعدد من الملاحظات تمثلت في:

- من خلال تحليل مضمون هذه الوسائل، فالحقيقة تشير إلى أن الخوف من الإسلام ليس بالأمر الطَّارئ أو الجديد، غَيْرَ أنَّ هناك عواملَ عديدة تزيد من هذا الشعور حاليًّا، وتجعل الأوروبيين يرون في الإسلام خطرًا كبيرًا وتحديًا أكبر أمام الغرب؛ لذلك كانت حصيلة تأمل؛ نتيجة الدراسات الإعلامية، التي تناولت صورة المسلمين في الوسائل الأوروبية المقروءة والمسموعة والمرئية سلبية في أغلب الأحيان.

- توجد بعض التغطيات غير المتحيزة أحيانًا؛ لكنها قليلة قياسًا على الصورة غير الصحيحة عن المسلمين، السائدة في الإعلام الغربي؛ نتيجة المعالجات المغرضة.

- إن وقوع بعض الأحداث المرتبطة بالمسلمين عمومًا تزيد فيها المعالجة غير الموضوعية، سواء كانت هذه الأحداث متعلقة بالأقليات الإسلاميَّة في أوروبا، أم في بعض الدول العربية والإسلامية.

- تعكس الصورة النمطية للإسلام أو المسلمين في الإعلام الغربي أنَّهم يتبنون التطرف والعنف والجهاد، ونبذ العلمانية ورفض الاندماج، كما يتم تشويه مفهوم الجهاد في الإسلام في الإعلام الغربي، ومن ذلك تأكيد البعض على أنَّ الإسلام هو دين حرب، وقد أصبح يكفي أن تتم الإشارة في أيِّ مقال لمصطلح الجهاد مقرونة بترجمة في اللغة الفرنسية الحرب المقدسة؛ لكي تثار الزوابع والهواجس والمخاوف، فعلى سبيل المثال

نشرت صحيفة لونوفيل أوبزرفاتير مقالاً عمَّا وصفته بانفجار الحالة الإسلامية في فرنسا، وأن هناك في تلك الفترة أكثر من ألف مسجد، وأكثر من ستمائة جمعية إسلامية، وأن هذا انفجار يعود إلى حوالي ١٧ سنة، ويضيف صاحب المقال المذكور أنَّ تكرار العمليات الإرهابية واختطاف الرَّهائن تندرج ضمن إستراتيجيِّة مضادة للغرب، عبر تمرير خطاب الجهاد في معناه العدواني.

ولا تختلف الصورة في بريطانيا عنها في فرنسا وباقي دول أوروبا؛ حيث تصف وسائل الإعلام الدين الإسلامي بالدين البدائي والإرهابي، وأنَّه هو الدين الذي يتعارض مع الحضارة، والبديل عن الشيوعية وإيديولوجياتِها، خاصَّةً بعد سقوط الاتحاد السوفييتي، ومن ذلك:

- نشرت صحيفة صنداي تايمز مقالاً لكاتب يدعى بيير جرين دورتون بعنوان: الوجه القبيح للإسلام، قال فيه: إنَّ الإسلام الذي كان حضارة عظيمة تستحقُّ الحوار معها قد انحط، وأصبح عدوًّا بدائيًّا لا يستحق إلا الإخضاع.

- استثارة الفزع من الإسلام بداخل القارئ الأوروبي، من خلال العناوين المخيفة في الصحف، مثل: المسلمون قادمون، الحروب الصليبية مستمرة، سيف الإسلام يعود من جديد، العالم يتحكم فيه بدو الصحراء وشيوخ البترول، وما زالت هذه الحملات الإعلامية تظهر بين الفينة

والأخرى؛ مما يُسهم بطبيعة الحال في تنميط صور مغلوطة تماماً عن الإسلام بوصفه دينًا للكراهية والتعصب والعنف، ولعل أبلغ تعبير عن وضع الإسلام في الإعلام والإدراك الغربيين ظاهرة الإسلاموفوبيا، وهي الكلمة التي دخلت قاموس السياسة الأوروبية، وتحولت إلى مفردة لها معانٍ محددة في عصرنا كما حدث في القرن التاسع عشر مع مفردة اللاسامية، وتحت مفردة الإسلاموفوبيا، وهي كلمة يقصد بها الإرهاب الإسلامي، كمصطلح لمعنى الخوف من الإسلام بدأت تعقد المؤتمرات السياسية، وتدار الندوات الفكرية لمعالجة مواضيع المخاوف من الإسلام وأبعادها الاجتماعية والاقتصادية والثقافية .

- في دراسة قامت بها الباحثة مارلين نصر عن صورة العرب والإسلام في الكتب المدرسية الفرنسية، والصادرة عن مركز دراسات الوحدة العربية في عام ١٩٩٥، أكدت من خلال محاور دراستها أنَّ المناهج التربوية الفرنسية تقدِّم العرب والمسلمين باعتبارهم متمردين ونهابين ومخربين وسفاحين، ولا تأتي على ذكر أيَّة صفة من صفاتهم المعروفة، مثل: الشرف، والشجاعة، والشهامة، والعرفان بالجميل، وكرم الضيافة، والتعاون، والقناعة، وقوة التحمل وغير ذلك.

- صارت الصحافة الفرنسية مثلاً بحسب ما توصلت إليه دارسة أحد الباحثين الجامعيين، وهو صادق سلام تضع على عاتق المسلمين الأزمة

الاقتصادية برُمَّتها، والبطالة، واختلال الأمن، والإرهاب، كما أصبح الناخبون الفرنسيُّون في مواقع عدة يصوِّتون لأكثر المرشحين عدوانية ضد الإسلام، كما لاحظ الباحث أنَّ المجلات الفرنسية التي تخصص أعدادًا تدور مَحاورها حول الإسلام ترتفع معدَّلات مبيعاتها ١٥ بالمائة؛ لذلك باتت المجلات التي تعاني الركودَ تلجأ إلى توظيف محاور تحريضية معادية للإسلام؛ لكي تحل أزمتها الاقتصادية.

كما أنَّ هناك قسيسًا إنجيليًّا معروفًا يُدعى جيري فالويل يقيم في منطقة لينشبرج في منطقة فيرجينيا، له برنامج أسبوعي إذاعي وتلفزيوني يصل إلى أكثر من ١٠ ملايين منزل أسبوعيًّا، وله جامعة خاصة أصولية، تُسمى جامعة الحرية يهاجم من خلالها النبي ص من خلال وسائل إعلام أمريكية كُبرى، إضافة إلى موقعه الخاص على الإنترنت ؛ حيث وضع في صفحته الأولى تاريخًا زائفًا عن النبي ص ومن أقواله التي ذكرها في برنامجه الذي استغرق مدة ٦٠ دقيقة في ٦ أكتوبر ٢٠٠٢: أنا أعتقد أن محمدًا كان إرهابيًّا، في اعتقادي المسيح وضع مثالاً للحبِّ، كما فعل موسى، وأنا أعتقد أن محمدًا وضع مثالاً عكسيًّا، وأنه كان لصًّا وقاطعَ طريق.

وبناء على ما سبق؛ فهناك من يتعمَّد الإساءة للإسلام، ولرموز المسلمين، ولا نجد له ما يبرر فعله، وهناك من يتعمَّد الإساءة؛ نتيجة

لتراكمات من هنا وهناك نجمت عنها هذه النظرة، التي جعلته يقر في وجدانه هذه الصورة عن الإسلام والمسلمين، فأمَّا بالنسبة للفئة الأولى فلا بدَّ أن ننتصر عليها وندحضها، وأمَّا بالنسبة للفئة الثانية، فلا بد من بذل جهود مخلصة لإيصال الصورة الناصعة لفكر المسلمين وثقافتهم، ودلالات تعاليم دينهم، وفي ذلك دَوْر كبير لتجاوز المحنة على المسلمين ممن يعيش بين أكناف الغربيين، فهم المعنيُّون قبل غيرهم، وبمساندة الشعوب المسلمة في ديارهم بتغيير الصُّورة، وإلا فهم المتضرِّرون مُباشرة بسبب ذلك.

الإعلام في المجتمع المسلم

الإعلام الإسلامي إعلام ذكي؛ يتحرى صدق ودقة الخبر ووجوب التثبت منه قبل نشره؛ لأنه منبثق من عقيدة المسلم؛ عقيدة الوضوح والاستقامة فلا يقوم شيء فيها على الظن أو الوهم أو الشبهة، قال تعالى: {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً}.

يقول سيد قطب: وهذه الكلمات القليلة تقيم منهجًا كاملا للقلب والعقل، يشمل المنهج العلمي الذي عرفته البشرية حديثًا جدًا، ويضيف إليها استقامة القلب ومراقبة الله، ميزة الإسلام على المناهج العقلية الجافة! فالتثبت من كل خبر ومن كل ظاهرة ومن كل حركة قبل الحكم عليها هو

دعوة القرآن الكريم، ومنهج الإسلام الدقيق ومتى استقام القلب والعقل على هذا المنهج لم يبق مجال للوهم والخرافة في عالم العقيدة ولم يبق مجال للظن والشبهة في عالم الحكم والقضاء والتعامل، ولم يبق مجال للأحكام السطحية والفروض الوهمية في عالم البحوث والتجارب والعلوم.

والأمانة العلمية التي يشيد بها الناس في العصر الحديث ليست سوى طرف من الأمانة العقلية القلبية التي يعلن القرآن تبعتها الكبرى، ويجعل الإنسان مسؤولا عن سمعه وبصره وفؤاده، أمام واهب السمع والبصر والفؤاد إنها أمانة الجوارح والحواس والعقل والقلب أمانة يسئل عنها صاحبها، وتسئل عنها الجوارح والحواس والعقل والقلب جميعاً أمانة يرتعش الوجدان لدقتها وجسامتها كلما نطق اللسان بكلمة، وكلما روى الإنسان رواية، وكلما أصدر حكماً على شخص أو أمر أو حادثة {وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ}.. ولا تتبع ما لم تعلمه علم اليقين، وما لم تتثبت من صحته، من قول يقال ورواية تروى، من ظاهرة تفسر أو واقعة تعلل، ومن حكم شرعي أو قضية اعتقادية وفي الحديث: إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث وبئس مطية الرجل قوله زعموا .

وهكذا تتضافر الآيات والأحاديث على تقرير ذلك المنهج الكامل المتكامل الذي لا يأخذ العقل وحده بالتحرج في أحكامه، والتثبت في

استقرائه؛ إنما يصل ذلك التحرج بالقلب في خواطره وتصوراته، وفي مشاعره وأحكامه، فلا يقول اللسان كلمة ولا يروي حادثة ولا ينقل رواية، ولا يحكم العقل حكماً ولا يبرم الإنسان أمراً إلا وقد تثبت من كل جزئية ومن كل ملابسة ونتيجة، فلم يبق هناك شك ولا شبهة في صحتها.

وهذا التثبت لا يقدر عليه إلا من لديه القدرة على استنباط الحقيقة، واستخراجها من بين الأنباء المتناقضة، والملابسات المتراكمة، يقول تعالى: {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ} قال الطحاوي في سياق حديثه عن لفظ زعم وورودها في بعض آيات القرآن الكريم: .. وكل هذه الأشياء؛ فإخبار من الله بها عن قوم مذمومين في أحوال لهم مذمومة، وبأقوال كانت منهم كانوا فيها كاذبين، فكان مكروهًا لأحد من الناس لزوم أخلاق المذمومين في أخلاقهم، الكافرين في أديانهم، الكاذبين في أقوالهم وكان الأولى بأهل الإيمان لزوم أخلاق المؤمنين الذين سبقوهم بالإيمان، وما كانوا عليه من المذاهب المحمودة والأقوال الصادقة وقال البغوي: إنما ذم هذت اللفظ، لأنه يستعمل غالبًا في حديث لا سند له، ولا ثبت فيه، إنما هو شيء يحكى على الألسن، فأمر النبي ص بالتثبت فيما يحكيه، والاحتياط فيما يرويه، فلا يروي حديثًا حتى يكون مرويًا عن ثقة.

وليس سبقًا إعلاميًا نشرُ الأخبار دون التثبت من صحتها، والتأكد من مصدرها، كما أنه ليس سبقًا إعلاميًا نشرُ أقوال العلماء ومن عرفوا بالصلاح ونسبتها إليهم دون التحقق من صحتها على الوجه الذي رويت به، فكم من فتوى أو قول روي عن عالم رواية غير دقيقة؛ لأن الراوي لم يحسن فهمها، فأساء في النقل والتبليغ، فطارت بها الألسن وتلقفها الناس من وسائل الإعلام، والناس عادة تحب الغريب من الأقوال هذا بالنسبة للعلماء خاصة، أما بالنسبة للمسلمين عامة، فلابد من التبين فيما يقال عن المسلم من أخبار سيئة، وأقوال شائنة، فلا ينبغي أن نسارع بروايتها دون تثبت، فالله تعالى يقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا}.

يقول سيد قطب: ومدلول الآية عام وهو يتضمن مبدأ التمحيص والتثبت من خبر الفاسق، ويخصص الفاسق لأنه مظنة الكذب، وحتى لا يشيع الشك بين الجماعة المسلمة في كل ما ينقله أفرادها من أنباء، فيقع ما يشبه الشلل في معلوماتها وأما الصالح فيؤخذ بخبره، لأن هذا هو الأصل في الجماعة المؤمنة، وخبر الفاسق استثناء، فهو موضع الشك حتى يثبت خبره والأخذ بخبر الصالح جزء من منهج التثبت لأنه أحد مصادره، فالأصل في الجماعة المؤمنة أن يكون أفرادها موضع ثقتها، وأن تكون أنباؤهم مصدقة مأخوذ بها، أما الشك المطلق في جميع المصادر وفي جميع الأخبار، فهو مخالف لأصل الثقة المفروض بين

الجماعة المؤمنة، ومعطل لسير الحياة وتنظيمها في الجماعة والإسلام يدع الحياة تسير في مجراها الطبيعي، ويضع الضمانات والحواجز فقط لصيانتها لا لتعطيلها ابتداءً وهذا نموذج من الإطلاق والاستثناء في مصادر الأخبار، وبذلك يستقيم أمر الجماعة وسطًا بين الأخذ والرفض مما يصل إليها من أنباء جاء عن الإمام ابن المبارك: الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء فالواجب على كل من سمع طاعنًا فى أخيه المسلم، أو متهماً له بمكروه، أن يتسلسل بالسؤال إلى أن يعرف مصدر القول، ثم يتفكر، هل هذا ممن تقبل شهادته؟ هل عرف فيه الكذب؟ هل سبق أن جاهر بمعصية؟ ما درجة حفظه وضبطه لما يسمع؟ فلعله يجد من خلال التمحيص من يُطعن في التزامه بدين الله، فيتضح له سوء النية والقصد، أو يرى ضعفًا في الضبط والحفظ وخللا في النقل.

الإعلام وثقافة التطاول

عندما يتطاولُ الأصاغرُ على الأكابر يحدث الخللُ والزلل، ولو لم يكن ذاك لما كان من علامات الساعة أن يُؤخذ العلم من الأصاغر ويترك الأكابرولذلك انتشرت مقولة إذا أردت أسرع طريقة للشهرة فما عليك إلا أن تتعرض لعلم ؟

ومن المعلوم أن من يملك النقد لا بد أن يكون مالكًا لأدواته ووسائله، ومن القواعد الأصولية المهمة الحكم على الشيء فرع عن تصوره؛ فماذا تقول فيمن لا يملك أدوات التصور فضلا عن أدوات النقد الصحيح؟

ثم لابد أن يكون الناقد متجردًا للحق، متخليًا عن الهوى، متجنبًا إغراءات أصحاب المال والجاه.

فتجد مثلا إحداهن أو أحدهم يقول في عنوان له في صفحة نقاشات الفنون والرياضة كبديل للعنف والإرهاب وقد خلط فيه الكاتب خلطا فظيعًا يريد أن يبين جواز الغناء والآلات الموسيقية حتى بلغت بالكاتب الجرأةُ إلى أن يقول: إن عبد الله بن الزبير كان له جوارٍ عوَّادات وإن ابن عمر دخل عليه وإلى جنبه عود، فقال: ما هذا يا صاحب رسول الله؟ فناوله إياه فتأمله ابن عمر وقال ميزان شامي في إشارة من الكاتب إلى تأييد ابن عمر لذلك مع العلم بما في هذه القصة من الكذب والاختلاق والغلط، فانظر كيف كذب على صحابة رسول الله ص، فهل يؤمَن للكاتب جانب؟

ويقول كاتب آخر في عدد آخر عن ذريعة الاختلاط التي يحتج بها العلماء في تحريم العمل في بيع ملابس النساء، وقيادة المرأة للسيارة ما نصه: إننا نريد تفسيرًا لهذا الاختلاط الذي نعرفه تماماً فهو موجود في الطواف حول الكعبة، والاختلاط الموجود في المسعى وفي الجمرات.

وكأنه يشبه الاختلاط في الأسواق بالاختلاط في المشاعر المقدسة، ونسي الكاتب أو تناسى أن هذا قياس مع الفارق، إن كان يعلم القياس أصلاً وأن ما ذكَرَ لا يستطاع دفعة لكثرة الوافدين من جميع أقطار العالم ولاستمرار الطواف في جميع لحظات اليوم، فكيف ندفع ذلك يا شيخنا؟؟ أم أنك لم تقرأ قول الله تعالى {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} ولا يخفى على كل ذي لب سليم ما في المنع من مفسدة أكبر؛ إذ إن المشاعر المقدسة مشاع لجميع المسلمين أما البيع في الأسواق فإن المفسدة في الإمضاء أعظم منها في المنع،ونسي أو تناسى أن الاختلاط نوعان أحدهما متعمد والآخر غير متعمد ولا يستطاع دفعه، فكيف يجمع المتفرقان كي يصبحا شيئًا واحدًا؟!! وأصل الدعوى في ذلك إنما يراد بها أبعاد أخرى غير ما يدّعون مما لا يخفى على كل ذي عقل سليم وآخر يقول في مقابلة له في قناة الاقتصادية: إن العلماء ليس لديهم قداسة عن النقد، وفي المقابل تراه يجعل لأرباب التغريب ذات القداسة التي نفاها عن العلماء؟

ما وجه الشبه في الكلام في الدين، بين طبيبة اجتماعية جل كتبها في تربية الأطفال، أو اقتصادي لا يعرف إلا س أو ص، أو تاجر ليس له هم إلا أن يجمع المال بأي طريقة كانت، وبين عالم جليل أفنى جل عمره في التعلم والتحصيل ومن ثم التعليم، ثم بعد تفكير ليس بالطويل تتبين الفرق فإذا هو شاسع وعميق، إذ ان العالم ينتقد ويتكلم ويفتي على علم وبصيرة، وفى المقابل تجد أكثر هؤلاء لا يعلم ما شروط الوضوء، ولا

شروط رمي الجمار، لكنك تجده يتكلم في أمور مسلمات قد انعقد عليها الإجماع بعد الكتاب والسنة يريد أن يبطلها، يتكلم في الجهاد فتراه يبطل فيه عقائد راسخة لا يجوز فيها التغيير والتحويل مهما تغير الوقت والزمن، وتارة ينتقص مناهج التعليم ، وتارة في سد الذرائع، وأخرى في المصالح المرسلة، وغيرها مما يكون التلميح فيه أبلغ من التصريح، وقد صدق من قال: من تكلم في غير فنه أتى بالعجائب، وقد يقول قائل إن هذه قاعدة غير مطردة، لكننا نقول إن ذلك مبني على التتبع والاستقراء، إما بحال الكاتب وإما بما هو مكتوب، ثم إن الحكم على الأشياء إنما يكون بالأغلب، والشاذ كما قيل لا حكم له.

حتى بلغت الجرأة بأكثر من واحد منهم أن يقول في مسألة شرعية لأحد أعضاء هيئة كبار العلماء يعد من أكبر العلماء في العالم الإسلامي: أتحداك أن تأتي لي بدليل من الكتاب والسنة؟ فما كان من العالم الرباني إلا أن أتى بأكثر من خمسة أدلة من الكتاب والسنة دون كلام العلماء، وآخر يقول: إن فقه ابن تيمية لا يناسب هذا الزمان، والآخر يقول: إن الشافعي مغرور عندما قال: قولي صحيح يحتمل الخطأ وقول غيري خطأ يحتمل الصواب مما يؤلم ويقود إلى العجب أشد العجب من هذا الإلمام من بعض الكتاب أو المتكاتبين الذين لم يشهد لهم مثيل منذ خلق الله الأرض ومن عليها، فإذا أردته نحوياً فاق سيبويه، وإن أردته قارئاً فاق أبي بن كعب، وإن أردته كيميائياً فاق ابن حيان، وإن أردته محدثاً فاق

ابن المديني، وإن أردته فقيهاً فاق أبا حنيفة والشافعي، وإن أردته فلكياً كان كذلك، وإن أردته عاملاً في البلدية كان أشد من ذلك.

فمن المسؤول عن كل هذا التطاول على مبادئ الشريعة؟ ولماذا نجد كل هذه التجاوزات للنظام الأساسي للحكم ولا نجد حماية لهذا النظام؟ثم أين المساواة في الأخذ بالنظام بين من يتطاول على الأمن، وبين من يتطاول على الدين؟

obeikandl.com